المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة دومة الجندل

١ ـ الإعداد العسكري والنفسي والتربوي للمواجهات القادمة:

يقول د/ الغضبان: «كانت خطة الرسول القائد ﷺ ترمي إلى أهداف عديدة وراء هذه الغزوة، فهي **غزوة، وحرب استطلاعية** تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها.

وهي **حرب إعلامية** تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، فبعد وجود ذلك الجيش القوي في بدر، والذي أثبت أنه سيد أهل الموسم، وقلب الصفحة الإعلامية التي ربحتها قريش بعد أُحُد، أنه لم يبق من المسلمين أَحَد، فتأتي هذه الغزوة لتعطي أبعادًا أضخم، وآمالًا أوسع للقوة النبوية المتوافرة في الساحة العربية.

وهي **حرب عسكرية** تريد أن تصد هجومًا محتملًا على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة.

وهي **حرب سياسية** تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أُحُد لتقصد المدينة وتستبيحها.

وهي فوق هذا كله، وأهم من هذا كله، **دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة** على رأسها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه رضي الله عنهم، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه، إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها ﷺ ليصوغها برفق وتؤدة على ضوء الإسلام، ويعلم الجيل الرائد فن القيادة، وعظمة السياسة؛ لأنه سيكون كل فرد منه فيما بعد على رأس جيش في صحاري الأرض وفيافيها ماضيًا في نشر الإسلام، وتقديمه واقعًا حيًّا للناس قبل تقديمه فكرًا خالصًا لهم.

لهذه الأهداف مجتمعة كانت هذه الغزوة العظيمة.

لقد كانت **معركة صامتة، وتربية هادئة**، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويُمتحن ويُقوَّم؛ ليكون هذا استعدادًا لمعركتين قادمتين من أعنف معارك هذه المرحلة، وهي: غزوة بني المصطلق، وما تلاها من آثار إيجابية وسلبية، ثم غزوة الخندق التي مثلت قمة التخطيط المعادي للإسلام، وكان الهُوي بعدها إلى المنحدر، ولم تكن غزوة دومة الجندل إلا إعدادًا عسكريًّا نفسيًّا وتربويًّا لهذه المواجهة». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٧٢-٣٧٣].

٢ ـ التربية على الطاعة والانضباط للأمير:

يقول د/ الغضبان: «ومن مخططات التربية كذلك أن يكون والي المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ﷺ في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًّا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًّا، بل من غفار التي كانت تعتبر من سُرَّاق الحجيج عند العرب، فلا بد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًّا كان شأن هذا الأمير، ولابد أن تذوب الفوارق الطبقية في القبيلة والعشيرة، ويخضع الأوس والخزرج والقرشيون لأمير من غفار، ولا شك أن الكثير من المنافقين لا يزالون في المدينة، وقد يكون عبد الله بن أُبي على رأسهم، وهم أعجز من أن يشكِّلوا استعصاء أو مواجهة للأمير الذي ولاه الرسول ﷺ، والمؤمنون الموجودون قادرون على أن يكبحوا جماح هذا الاستعصاء.

ولولا ثقة الرسول ﷺ بكفاءة أميره (سباع بن عرفطة الغفاري ﷺ) وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، ولولا ثقته بالجيل الذي رباه، لما أقدم النبي ﷺ على هذه الإمارة، إنه ﷺ يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة في تحويل أبناء العشائر والقبائل إلى أبناء الأمة الواحدة المسلمة التي تسمع وتطيع، ولو كان عليها عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيهم كتاب الله». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٧٤].

٣ ـ أهمية عنصر المفاجأة في الحرب:

يقول م/ أبو راس: «أراد الرسول ﷺ أن يلقن العرب في شمال الجزيرة العربية الذين كانوا لا يخشون أحدًا بعد القيصر بعد أن ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا ذنبًا وأداة في يد القيصر ليؤدب بهم من يخرج عن طاعته من العرب!

ولم يكن القيصر يتوقع في يوم من الأيام أن يكون للضائعين وللتائهين وللهائمين على وجوههم قوة تهدد ملكه، ولم يكن القيصر يعتقد أن ملكه سيزول على أيدي هؤلاء العرب الذين عهده بهم لا هَمَّ لهم إلا السلب والنهب والانكباب على الشهوات والملذات، التي في سبيلها يقتلون بعضهم بعضًا، ويسلبون بعضهم بعضًا، ويبيعون بعضهم بعضًا للقياصرة أو للأكاسرة؛ لذا فلقد اجتمع متنصرة العرب، لما سمعوا بالقوة المتنامية في المدينة المنورة ـ في «دومة الجندل» وذلك لمهاجمة المدينة المنورة، إلا أنه ﷺ لم ينتظر

الغزاة حتى يدهموا المدينة ولكنه خرج في ألف من المسلمين يكمن بهم نهارًا، ويسير بهم ليلًا، فما أن بلغو مضارب أعدائهم مجتمعين للإغارة على المدينة حتى اجتاحوهم مباغتين ففزعت الجموع، وفرت في كل اتجاه، وأقام ﷺ عدة أيام يبعث السرايا هنا وهناك، فما صمد أحد في وجه بعوثه ﷺ».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٠-٢٣١].

البراعة الحربية للنبي ﷺ: يقول د/ الحميدي: «ويظهر في هذا الخبر براعة النبي ﷺ في الإدارة الحربية حيث وصل إلى دومة الجندل في أقصى شمال الجزيرة وهو يقود جيشًا كبيرًا نسبيًّا، فلم يعلم به أهل تلك البلاد حتى فاجأهم قبل أن يجتمعوا له ويُعدوا العدة للقائه، وبهذه الإدارة الحكيمة جَنَّبَ النبي ﷺ أصحابه خوض معركة قد تكون شاقة عليهم مع حصول المسلمين على المكاسب الحربية التي أرادوها، من إضعاف عدوهم معنويًّا وماديًّا، وإرهابهم حتى لا يفكروا مرة أخرى بغزو المسلمين».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٩ -٧٠].

٤ ـ دقة الرصد الحربي وسرعة اتخاذ القرار:

يقول د/ قلعه جي: «لقد كان على رسول الله ﷺ أن يتابع نشاطه العسكري لنشر الأمن في الصحراء؛ ولإقناع القبائل العربية بأن السيادة على الصحراء للدولة الإسلامية دون غيرها، وأن أي تحرك ضدها سيكون وبالًا على صاحبه؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما سمع بأن القبائل الضاربة عند دومة الجندل يؤذون من مر بهم، وأن طيشهم قد دفعهم إلى التفكير بمهاجمة المدينة المنورة، توجه إليهم فورًا ﷺ».

[قراءة سياسية لقلعه جي ١٧٤].

ويقول د/ الحميدي: «وهذا الخبر يدلنا على دقة الرصد الحربي عند المسلمين في العهد النبوي، حيث علم الرسول ﷺ بما هَمَّ به أهل دومة الجندل من الزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين، فقام بهذه الغزوة الموفقة التي أدت إلى تلك النتائج الطيبة لصالح المسلمين». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٩].

٥ ـ سِرِّيَّة الحركة في الأمور العسكرية:

يقول د/ أبو فارس: «إن سِرِّيَّة الحركة في الأمور العسكرية أمر في غاية الأهمية، وكثير من هذه الأمور تعتمد على التستر والتخفي في السير والحركة، وقد كان رسول الله ﷺ يسلك أساليب مختلفة في التستر، وفي غزوة دومة الجندل كان أسلوبه أن يسير بالليل وأن يكمن بالنهار حتى لا تشيع أخباره وتُنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء، ومن ثم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة، وترسم خطتها بناء على ما لديها من معلومات». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٠].

ويقول عميد/ فرج: «وكان الرسول ﷺ يسير ليلًا ويكمن نهارًا، وهذا إجراء يتصف من وجهة النظر العسكرية بالحكمة والفهم وحسن التقدير، ذلك أن التحرك يتم في منطقة صحراوية جرداء، حيث لا

ظل يحمي المتحركين من الشمس ويقيهم حرارتها، وكذلك كان الوقت صيفًا والتحرك ليلًا أخف وأيسر، هذا فوق أن التحرك ليلًا كتمان للسير ومانع للاستكشاف؛ مما يحقق المفاجأة، وهي من العوامل الرئيسة لنجاح الخطة؛ لأنها تعني إخفاء نية وقوة وموعد واتجاه الضربة». [العبقرية العسكرية لفرج ٢٧٠].

٦ ـ المبشرات بالفتوحات الإسلامية:

يقول د/ العيساوي: «تعتبر غزوة دومة الجندل أول غزوة غزاها المسلمون لأرض الشام، ويُعد هذا إنذارًا للروم الذين يسيطرون على الشام، وبعثت الأمل في نفوس المسلمين بأنهم سيفتحون ملك قيصر كما سيفتحون ملك كسرى». [فقه الغزوات للعيساوي ٢٨٠].

٧ ـ بسط نفوذ المسلمين:

يقول د/ هيكل: «دومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس، وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد ﷺ وأصحابه، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم، مستهينين بالقيظ والجدب وقلة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية: الإيمان بالله وحده لا شريك له». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٤].

ويقول د/ الوكيل: «إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلًا ـ أي ما يقرب من خمسة وستين كيلو مترًا ـ لدليل قاطع على مدى ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد، لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبته عشرة آلاف فتى». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٠].

٨ ـ ميزات غزوة دومة الجندل:

يقول د/ أبو شهبة في ذلك:

(١) أنها أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت إرهابًا لقيصر وجنده.

(٢) أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل؛ ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥١-٢٥٢].

٩ ـ قيمة الرحمة:

يقول أ/ فتح الباب: «ومن مناقب النبي ﷺ في تلك الغزوة أنه ﷺ عاهد عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان من أعراب تلك المنطقة ـ أن يتركه المسلمون يرعى هو وقومه في رقعة تمتد من تغلمين إلى المراض، إذ كانت بلاده قد أجدبت على حين أخصب ما يجاورها من بقاع، وتلك قيمة الرحمة التي تشمل المحتاجين جميعًا أنصارًا وأعداء في السلم وفي الحرب معًا، قيمة غوث الملهوف والإحسان إلى الإنسان ومهما اختلف جنسه أو لونه أو معتقده». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٤-١٢٥].

١٠ ـ القضاء على العراقيل أمام الدعوة:

يقول أ/ رضوان: «وقد استطاع الرسول القائد ﷺ بجيشه الذي لا يزيد تعداده عن ألف من الجنود، وباتباع خطة المفاجأة الكاملة بسيره ليلًا وكمونه نهارًا أن يلحق الهزيمة المريرة بتلك القبائل الكثيرة العَدد والعُدد، وأن يبدد شملهم، ويغنم الكثير من أموالهم.

وقد عاد الرسول القائد ﷺ بعد شهر إلى المدينة، بعد أن حذَّر الإمبراطورية الرومانية ـ ومن يدور في فلكها من قبائل العرب ـ بأن أمة الإسلام الفتية الناشئة لن تتهاون في كبح جماح المعتدين، ولن تتوانى عن إقامة العدل في كل بقاع الأرض العربية، وأن هذه الأمة المسلمة المشرقة بنورها على العالم المظلم بالشرك والظلم والاستبداد لا تخاف قيصر في عَدده وعُدته.

ولا شك في أن هذه الغزوة المباركة قد حققت كل أهدافها، ووطدت هيبة الإسلام والمسلمين في كل بقاع الجزيرة العربية، وفتحت الطريق أمام مواصلة الزحف الإسلامي، الذي يحمل مشاعل النور والعدل والتوحيد إلى ربوع الإمبراطورية الرومانية فيما بعد». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٤].

«ورجع النبي ﷺ مع أصحابه فرحين مستبشرين إلى المدينة بعد أن طهر وكرًا آخر من أوكار العدو ممهدًا الطريق لانتشار نور التوحيد وسيادة كلمة الحق وانتصار رواد القيم الفاضلة على المبطلين والمستغلين». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٥].